İslâm Araştırmaları Merkezi

دور اللبنانيين في معركة النضال العربي

(١٩٠٨ - ١٩٤٢)

د. حسان حلاق

الدار الجامعية

دور اللبنانيين في معركة النضال العربي
(١٩٠٨-١٩٤٢)

كانت ولاية بيروت (الجنوبية والشمالية) ومتصرفية جبل لبنان ومختلف المناطق اللبنانية الداخلية في اطار الولايات الشامية في العصر العثماني، وكانت تتأثر بأسلوب أو بآخر بالتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجارية في المناطق العربية سواء في المشرق العربي أو في المغرب العربي. وكانت بلاد الشام احدى المواقع الهامة والرئيسية التي انطلقت منها فكرة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان النشاط القوي قد استتبع اتصالات سياسية بين المشتغلين للقومية العربية[1]، وكان المشتغلون والعاملون للفكر القومي ينقسمون الى شعبتين أساسيتين وهما:

١ ـ العاملون من أجل القضاء على الدولة العثمانية بالتعاون مع الدول الأوروبية، ودون الالتزام بمبادىء القومية واتجاهاتها السياسية.

٢ ـ العاملون من أجل استمرار الارتباط بالدولة العثمانية على أساس اللامركزية، وذلك توخياً لوصول الولايات العربية الى حقوقها وحقوق السكان القاطنين فيها.

ويلاحظ بأن التطورات السياسية والعسكرية في الدولة العثمانية قد أظهرت الكثير من الحقائق، فبعد قيام ثورة الاتحاد والترقي التركية عام ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩ تبين للقوميين العرب بأن القوميين الأتراك من الحكام الجدد هم من ألد أعداء القومية العربية والاسلام أيضاً، ذلك لأن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي انما كانوا بغالبيتهم إما من اليهود أو الصهيونيين أو الماسونيين أو الدونمة (اليهود الذين دخلوا الاسلام ظاهراً وبقوا على يهوديتهم سراً)[٢]. وقد تأثرت بيروت وبقية المناطق اللبنانية بهذا الحدث سلباً أو ايجاباً، فقد صدرت صحف جديدة ولاؤها للاتحاديين وأقفلت بعض الصحف الأخرى التي كانت موالية للسلطان عبد الحميد الثاني. وقد تبين فيما بعد للسياسيين ولقادة الفكر تورط الحركة الصهيونية في الانقلاب العثماني، وأشار الى ذلك صراحة صاحب مجلة «المنار» الشيخ السيد رشيد رضا، وصاحب مجلة «المشرق» الأب لويس شيخو وسواهما.

ومن الملاحظ أيضاً بأن اللبنانيين اهتموا منذ فترة مبكرة بأوضاع فلسطين والعالم العربي وشعروا بخطورة ازاحة السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش، بل ان البطريرك الماروني الياس الحويك أوضح لأحد المقربين قائلاً: «لقد عاش لبنان وعاشت طائفتنا المارونية بألف خير وطمأنينة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ولا تعرف ماذا تخبىء لنا الأيام من بعده»[٣].

ولا بد في هذا المجال من الاشارة الى أن رضا الصلح نائب ولاية بيروت في مجلس المبعوثان العثماني كان من جملة المعارضين للأطماع الصهيونية في فلسطين، ففي آذار (مارس) ١٩١١ ناقش مجلس المبعوثان النشاط الصهيوني، وقد حدا هذا الموضوع بروحي الخالدي نائب القدس ورضا الصلح الى معارضة سياسة وزير المالية التركية اليهودية جاويد بك. وأوضح رضا الصلح مدى خطورة شراء اليهود للأراضي واقامة المستعمرات الصهيونية في فلسطين، ورغبة اليهود في انشاء حكومة لهم فيها، واستند الى بعض الأدلة ومنها: اتخاذ اليهود علماً خاصاً بهم وطوابع بريدية ونقوداً خاصة. وأكدان هذا كله ليس رواية خيالية، ولذا فقد لفت أنظار الحكومة الى أن تُولي الأمر اهتماماً لأنه مسألة حيوية للبلاد العثمانية[٤].

وفي الوقت الذي كان فيه اللبنانيون يعالجون قضية فلسطين قبل تبلورها بشكل واضح، فانهم في الوقت نفسه لم يتوانوا عن تقديم المساعدات المالية والسياسية والعسكرية والصحافية لاخوانهم في طرابلس الغرب في ليبيا، الذين كانوا يتعرضون لهجمات من الأسطول الايطالي بين ١٩١١ - ١٩١٢، ففي العام ١٩١٢ وبعد تواصل الضربات الايطالية سافر الى مصر عبد الله بيهم وسليم علي سلام من أعيان بيروت واجتمعا في شباط (فبراير) ١٩١٢ بالخديوي عباس حلمي باشا، وطلبا منه باسم الاسلام والوطنية والعروبة أن يسمح ولو سرا للمتطوعين اللبنانيين وللضباط العثمانيين بالمرور الى طرابلس الغرب عبر

الأراضي المصرية، ولتسهل مرور السلاح والمال، وقد استجاب الخديوي لهما ووعدهما خيراً. وكان ثمن مواقف البيروتيين واللبنانيين الذين أعلنوا تأييدهم وامدادهم بالمساعدات لأبناء طرابلس الغرب، ان قام الأسطول الايطالي بمحاصرة مدينة بيروت والأحياء وقصف المرفأ وذلك في أواخر شباط (فبراير) ١٩١٢، حيث قتل بعض الأهالي وأصيب البعض الآخر ودب الرعب والخوف بين السكان، كما أصيبت بيروت بأزمة اقتصادية دعت بعض السكان لنهب بعض المخازن[٥]. ولا بد من التأكيد في صدد الحديث عن حرب طرابلس الغرب، بأن الأمير شكيب أرسلان كان في مقدمة الذين حاربوا وجاهدوا ضد الايطاليين، حيث توجه من جبل لبنان الى مصر ومنها الى طرابلس الغرب على رأس جماعة من الشبان المجاهدين ومعهم المؤن والسلاح محمولة على (٦٠٠) جمل. كما قام بدور بارز أيضاً في الحرب البلقانية حيث قام بمساعدة الهلال الأحمر وتوزيع المساعدات التي جمعت من مصر على مسلمي الروملي[٦].

هذا وفي اطار التوجهات الوحدوية اللبنانية وفي اطار العلاقات مع البلدان العربية، فقد أوضح كولوندر ـ مدير القنصليّة الفرنسية في بيروت ـ في تقرير الى بوانكاريه ـ رئيس الوزراء الفرنسي ـ في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٢ من أن لجنة سرية لبنانية تعمل لتحقيق وحدة سورية ـ مصرية ومما جاء في التقرير: «. . . أن قرب مصر والعلاقات الوثيقة الموجودة

بين البلدين لم تعير ـ حسب رأيي ـ بشكل ملموس ميول اخواننا في الدين. . . أما المسلمون العرب. . . لا بد وأن يتجهوا بكل بساطة نحو مصر أرض الاسلام التي يحكمها أمير من عرقهم ودينهم. . لهذا السبب فان فكرة الانضمام الى بلاد النيل تلقى في سورية اتباعاً كثراً وأنصاراً متحمسين يجهدون في نشر هذه الفكرة التي وان كانت قديمة فانه لم تكن بعد قد تماسكت فعلياً إلا لسنة خلت. .» وأضاف القنصل الفرنسي في تقريره بأن اللجنة العاملة لتحقيق الوحدة السورية ـ المصرية إنما تكوّنت من: سليم علي سلام أحد وجهاء الطائفة الاسلامية في بيروت، ومحمد وأحمد كرد علي صاحبي صحيفة «المقتبس» التي تصدر في دمشق والدكتور عزت الجندي الملحق سابقاً ببعثة الهلال الأحمر المصري الى طرابلس الغرب والذي يجوب سورية منذ شهرين تقريباً في مهمة اعلامية كما يقول البعض وعبد الغني العريسي أحد أصحاب صحيفة «المفيد» العربية الصادرة في بيروت والتي أصبح اسمها بعد تعطيلها «الفتى العربي»، والشيخ السيد رشيد رضا صاحب صحيفة «المنار» الاسلامية التي تصدر في القاهرة».

وأضاف القنصل قائلاً: «. . . اني أعرف من مصدر أكيد أن زعماء أهم العائلات ببيروت قد اعلنوا عن رغبتهم في توجيه عريضة إلى الحكومة الانجليزية بغية الحصول على ضم سورية إلى مصر، وان المفتي قد ضم صوته إلى صوتهم، إلا أنهم أحجموا عن تنفيذ رغبتهم خشية أن تضمر فرنسا لهم الضغينة

إذا ما قيض لها احتلال البلاد. . ان سورية هي ثمرة ناضجة بمتناول الذي يرغب في قطفها وإذا لم نتنبه فإنه سوف تنفصل عن الأصل العثماني في مستقبل قد يكون قريباً، لتسقط على أرض الجيران»[٧].

ومن الأهمية بمكان أن اللبنانيين لم يشعروا مرة ـ لا سيما في العهد العثماني وبداية عهد الانتداب الفرنسي ـ بأنهم يشكلون أمة منفصلة عن الأمة السورية واستطراداً عن الأمة العربية، وقد عكست كتاباتهم وبياناتهم السياسية صحة شعورهم وتوجهاتهم، ومنها المنشورات التي وزعت سراً في بيروت في ١٩١٢ ـ ١٩١٣، وقد توج أحدها بنداء تحت عنوان «الى الأمة العربية» وجاء في البيان اثارة للروح القومية العربية بمخاطبة العرب بالقول: «بني قومي يا أبناء لغة عدنان وسكان مملكة عمر بن عبد العزيز والمأمون بن هارون. . وطننا في خطر. . كونوا مع الحق ثم لا تخافوا. الله معنا وقوة الأمة لا يستهان بها. . »[٨].

وكان ثمرة نشاط اللبنانيين في بيروت وباريس الدعوة لعقد أول مؤتمر عربي في التاريخ المعاصر. وبالرغم من أن بعض العناصر اللبنانية وسواها قد استغلت فكرة انعقاد المؤتمر لأهداف بعيدة عن غايات المؤتمر والمؤتمرين، غير أن ايمان اللبنانيين من أبناء الساحل والجبل بأنهم جزء من الكيان العربي، كان سبباً لتكوين لجنة عربية مشتركة تضم بعض المسلمين والمسيحيين لبحث واقع الولايات العربية في الدولة

العثمانية، وقد تكونت لجنة المؤتمر بغالبيتها من اللبنانيين مثال: عبد الغني العريسي، محمد محمصاني جميل معلوف، شكري غانم، ندرة مطران، شارل دباس بالاضافة الى عوني عبد الهادي (فلسطين) وجميل مردم بك (دمشق)، ثم أرسلت الولايات مندوبين عنها للمشاركة في المؤتمر الذي عقد في باريس في حزيران (يونيه) ١٩١٣. وكان قد وزع في بيروت نداء تحت عنوان «دعوة الى أبناء الأمة العربية» ولم يقل «دعوة الى أبناء الأمة البيروتية أو اللبنانية» فقد كان التفكير الشمولي العربي رائدهم مع التأكيد على أن بعض العناصر لم تكن مخلصة للعروبة التي نادت بها في تلك الفترة. ومما جاء في الدعوة ـ البيان «نحن الجالية العربية في باريس قد أوقفتنا مناظرات الجرائد الأوروبية ومغامز الساسة في الأندية العمومية على استقراء ما يجري من المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية وأخصّها زهرة الوطن سورية، ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد من لا يعلم أن ذلك نتيجة سوء الادارة المركزية. . وبعد المداولة تقرر عقد مؤتمر للعرب يقوم به السوريون فتفد اليه وفود أكابر من البلاد العربية وعقلاء أفاضل من السوريين المهاجرين لمصر وأميركا الجنوبية وأميركا الشمالية والبلاد الأوروبية، فتتمثل فيه الأمة العربية المنتشرة في أقطار الأرض وتحق كلمة التضامن الاجتماعي السياسي لهذه الأمة. . . وبعد فاننا ندعو كل من يخفق قلبه لأمة العرب صغيراً أو كبيراً أن يلبي داعي الوطن، لا سيما أرباب